ثقافة حافظ ومصادرها

١

القراءة

كانت الثقافة التي تلقاها حافظ بالمدارس محدودة جداً قليلة الغناء، ولكنه عكف على قراءة كتب الأدب العربي وأشبع رغبته منها ، وبخاصة كتاب « الأغاني » الذي قيل إنه قرأه مرات ، وكتاب « الوسيلة الأدبية » وكتاب « المكافأة » وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب . وكان يطيل النظر في دواوين الشعراء ويحفظ متخيرها . وكان يحسن الوقوع على الشعر الجيد الرائع يختزنه بين محفوظه ، وساعده على ذلك حافظة قوية تسعف ذوقه ، وذاكرة حادة تلبي حاجته . وكانت هاتان الخاستان موضع إعجاب أصحابه ومضرب المثل بينهم . يقول صديقه الشيخ عبد العزيز البشري : « كان حافظ قوي الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً . ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم فلم نشهدهم ونلابسهم لأحلنا ما يُروى عنه في هذا على مايتزيّد به القُصّاص ويسرفون في المبالغة طلباً للإفلاق والإغراب . ولقد كان — رحمه الله — يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرّز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمْزاً حتى يأتي على غايتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك في أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال ، فإذا حافظ يروى بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف »[1] .

ويذكر صديقه الأستاذ أحمد محفوظ أن حافظاً اختلف هو وبعض الأدباء

---

(١) مجلة أبولو (يولية ١٩٣٣) ص ١٣١١ .

فى لفظ « تيامن » — أى سار على يمينه — فطلب حافظ إليه أن يحضر الجزء الخامس من كتاب الأغانى لأن فى ترجمة « الكميت » هذه الجملة « تيامنوا يا فتيان » ، فأسرع الأستاذ محفوظ إلى الكتاب فوجد الجملة كما قال حافظ (١) .

وكان حافظ يروى القصة من الكتاب القديم برمّتها كما جرى بها قلم كاتبها ، ما تكاد تنشز عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه وتبهّجت ديباجته . وكان الجالس إليه يبهره ما تعجّ به حافظته من متنخّل الشعر والنثر ، حتى ليخيل إليه أن صدر حافظ قد وعى من هذا المأثور أكثر مما وعاه ديوان الحماسة أو مختارات البحترى والبارودى . وقد وصفه أحد أصدقائه أروع وصف فقال : « لم أر قط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلاً ومقفًّى مثل ما اجتمع لحافظ ، فكان حقًّا له من اسمه أوفر نصيب . وإذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرْق وُهيئ لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصبّ على سمعك عصارة الشعر العربى وأبدع ما انتضحتْ به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعدّ بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخيّر الشعر العربى عُرف إلى اليوم »(٢) .

وبلغ من حدة ذاكرة حافظ وقوة حافظته ما حدثنا به صديقه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار من أنه « كان يسمع الفقيه فى بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التى قرأ بها الفقيه »(٣) .

وكان لقوة ذاكرته ينشد قصائده فى المحافل من الذاكرة ولا يقرؤها من ورقة مبسوطة أمامه(٤) .

وقد نضحت هذه الثقافة العربية الرصينة على شعره ، فما تقرأ له قصيدة إلا وتلقى

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٢٩ .
(٢) ذكرى الشاعرين ص ١١ .
(٣) مجلة أبولو ص ١٣٢٤ .
(٤) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٤ .

فيها إشارة إلى حادث تاريخى أو شخصيةمشهورة أو مثل عربى أوحكمة مأثورة، أو غير ذلك مما تفيض به كتب الأدب العربى . ثم إن تأثره بما يقرأ جعله ينهج فى شعره نهج الأقدمين ويحرص على أن يوفر له ديباجة الشعر العربى الخالص وطلاوته . وفى ذلك يقول الشاعر خليل مطران : « حاضر المحفوظ من أفصح أساليبالعرب ، ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها وأحلاق حلاها » .

بيد أن حافظاً لم يكن يعكف على قراءة منظمة ذات منهاج مرسوم ، ولم يكن كذلك يتناول المسائل التى يقرؤها تناول الدارس المتعمق ، بل كان — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — « كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة ، فهو يرضى ذوقه فى أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة ، فإذا عثر على أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه فى نفسه »[1] .

ولهذا نقرأ له قصائد فى مسائل لم يدرسها دراسة طيبة . وقد لا يعلم عنها كثيراً ولا قليلاً . فقد رثى « قاسم أمين » وأشار إلى جهاده فى قضية المرأة مع أنه لم يقرأ كتبه كما أشرنا . ورثى الأديب الروسى « تولستوى » ، ويقول الأستاذ أحمد محفوظ إنه « لم يقرأ له شيئاً ولم يسمع به إلا عرضاً ، ولكن شوقى رثاه فلا بد له أن يرثيه والسلام »[2] . وقال قصيدة فى ذكرى شكسبير تدل على أنه لم يقرأه قراءة عميقة شاملة. وحينما أتم الأستاذ لطفى السيد ترجمة كتاب « الأخلاق» لأرسطو حيّاه بقصيدة تنبئ عن جهله التام بأرسطو وكتابه ، وسيكون لهذه المسألة حديث خاص فى موطن آخر .

ولهذا نرى حافظاً يضيق بألوان المعرفة التى تتطلب من ناشدها التعمق وطول التفكير . ويقول الشيخ البشرى : « كان حافظ قليل الصبر على النظر فى كتب علم الاجتماع ، وفى حفظ قواعده والمطاولة فى تفهم قضاياه واستخراج مسائله»[3] .

وسر هذه الفوضى القرائية — إن جاز هـــذا التعبير — فى حياة حافظ

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٠ للدكتور أحمد أمين .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٥ .

(٣) مجلة أبولو ص ١٣١٣ .

أنه كان ملولاً ، قليل الصبر ، لا يستقر على حال ما ، كما يدل عليه تاريخ حياته . فقد ملّ العمل فى مهنة المحاماة ، ولم يُطق حياة الجندية . ولولا أن الوظيفة فى دار الكتب لم تكن تفرض عليه قيودها لملّها كذلك . وقد لازمته هذه الفوضى طول حياته ، فلم يكن يُعنى بحسن هندام أو نظام ، ولم تكن له مكتبة منظمة كغيره من الأدباء ، بل كانت كتبه مبعثرة هنا وهناك ، فكنت ترى جزءاً من الأغانى على منضدة فى حجرة النوم وجزءاً آخر على مائدة الطعام وهكذا .

وكان يضيق بالنظام أشد ضيق ، وهو يُفصح عن ضيقه هذا فى قصيدته التى نظمها بمناسبة زيارته لإيطاليا ، وفيها يأخذ على الإيطاليين إفراطهم فى حب النظام فيقول :

أفرط القوم فى النظام وعندى ... أن فرط النظـــام أسرٌ ونير
ولذيذ الحياة ما كان فوضى ... ليس فيها مسيطر أو أمـــير (١)

وقد تبع هذه الفوضى إهمال شديد فى حياته الفنية ، فقلما كان يعنى بكتابة شعره فى دفاتر منظمة كما يصنع غيره ، بل كان يدوّنه فى قصاصات من الورق عرضة للضياع . ولولا أن الصحف قامت بنشر الكثير منه لفقدنا معظمه ولوقفت معرفتنا عن حافظ عند حد الشخصية المتميزة بخفة الروح التى تملأ المجالس بالمرح والإيناس ، حتى إذا انفرط عقد الحاضرين ضاع الكلام مع الرياح .

وهناك مسألة هامة يجب أن نعرض لها : تلك هى مدى إلمام حافظ باللغة الفرنسية . هم يقولون إنه كان ضليعاً فيها ، ولكنى لا أطمئن إلى ذلك ، فلو كانت درايته بها طيبة لنضحت على شعره ولظهر فيه أثر الثقافة الغربية كما نرى فى شعر شوقى . ولكنك تجد شعره ذا مسحة عربية خالصة فى ديباجته وفى جوه وفى معانيه . وأغلب الظن أنه لم يكن يحسن هذه اللغة . وقد عرض الأستاذ العقاد لمبلغ درايته حافظ بها وعبّر عن ذلك تعبيراً دقيقاً فقال : « فلا تجد بين العارفين

(١) الديوان ١/٢٢٧ .

باللغات الأجنبية أحداً أشبه منه بمن يجهلونها ، ولا تجد بين جاهليها أحداً أشبه منه بمن يعرفونها »[١] .

وهم يستدلون على تمكنه من اللغة الفرنسية بترجمته لكتابى « البؤساء » و « الموجز فى الاقتصاد » . والواقع أنك لا تجد بين النص الفرنسى للبؤساء والترجمة العربية إلا شبهاً باهتاً . وبعضهم يذكر أن حافظاً كان يُهرع إلى الإمام محمد عبده إذا اعتاص عليه فهم العبارة الفرنسية . ومع ذلك جاء الشبه خفىّ الملامح بين الترجمة والأصل . وسنعرض لهذه المسألة فى مكان آخر . وأما كتاب « الموجز فى الاقتصاد » فلم يكن جهد حافظ فيه إلا كتابة المقدمة فقط ، ويقول الأستاذ أحمد محفوظ — وكان من أشد الناس صلة به — : « والمعروف عندى أن أحمد حشمت (باشا) ناظر المعارف لما أراد أن ينفح حافظا أمره هو وخليل مطران بتعريب كتاب " الموجز فى الاقتصاد " فقام مطران بتعريب الكتاب وحده ، وشاركه حافظ فى الجائزة المرصدة للتعريب ، ولم يزد على أنه قدمه للقراء »[٢] .

ونستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين إن درايته باللغة الفرنسية لم تكن ذات غناء .

٢

المجالس

ولعل من أهم مصادر ثقافة حافظ التى أثّرت فى اتجاهاته الفنية المجالس التى كان يرتادها . فلقد عاشر حافظ من أول فتاء السن إلى غاية العمر أعلام الأدب واللغة والعلم والسياسة فى عصره ، وداخلهم وجالسهم ونادرهم وأخذ عنهم . وناهيك

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٧ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٤٣ .

بمن طوى عمره فى مصاحبة الإمام محمد عبده وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجى ومحمد المهدى وسامى البارودى ومصطفى كامل وسعد زغلول وأخيه فتحى وقاسم أمين وإسماعيل صبرى وحفنى ناصف وأحمد حشمت وعلى يوسف وإبراهيم المويلحى وابنه محمد . . . وسواهم من كل من يجرى فى العلم والأدب على عرق كريم . وكان حافظ متسعَر الذهن قوى الحافظة مستقيم الطبع ، فأصاب من صحبة أولئك العلماء وطول مذاكرتهم أنفس ما أصاب من ألوان العلم والمعرفة ، لأن هذه المجالس كانت — كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين — : « مدارس من أرقى المدارس ، تُطرح فيها المسائل العلمية والمعضلات السياسية والمشكلات الاجتماعية ، وتُعرض فيها الحلول المختلفة ، وتُبسط فيها أدواء الأمم وكيف عولجت ، وما إلى ذلك . وحسبك بمدارس كان المعلم فيها أمثال محمد عبده وسعد ومصطفى كامل »[1] . وليس من شك فى أن هذه المجالس كانت ينبوعاً ثرًّا نهل منه حافظ أمشاجاً من الثقافات التى أمدته بكثير من الأفكار صاغها فى شعره .

وكان حافظ يشدّ الرحال إلى الأرياف الحين بعد الحين عند أصدقائه الأغنياء ، مثل قرية « الربعماية » بإقليم الشرقية معقل الأسرة الأباظية ، وإبيار بالغربية بلد الشرفاء ، وساحل سليم بالصعيد بلد السرىّ الكبير محمود سليمان باشا ، وكوم النور بالدقهلية حيث تقيم أسرة هلال المعروفة .

وكان حافظ يصيب من هذه المجالس وتلك الصلات علما ويرتاش منها مالا ، وكان الشعراء فى ذلك العصر لا يأنفون من الجوائز المالية أثماناً لمدائحهم التى ينظمونها فى الأغنياء ومحبى المظاهر ، فكان الشعراء يحيون حياة فيها رخاء وفيها متعة بسبب هذه المنح التى كانت تنهال عليهم من سراة القوم[2] .

وكان لحافظ — إلى جانب هذه المجالس الراقية المتوقرة — مجالس خاصة تنعقد فى المقاهى والمشارب وأماكن اللهو وتضم صفوة من أساطين الفكاهة والتسلية والأدب ، وقلما كان يفوت حافظا مجلس من هذه المجالس ؛ فقد كان

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢١ .

(٢) انظر كتاب « حياة حافظ إبراهيم » للأستاذ أحمد محفوظ .

يذهب إلى مقهى « نيوبار » بصحبة الشاعر خليل مطران حيث كان يجلس شيخ مطربى ذلك العهد « عبده الحامولى » وحوله جمع من علية القوم وعشاق فنه فيتمتعون بطيب الشراب والطعام . وكان يرتاد مقهى « مشيدى » المواجه لوزارة المالية فيلتقى هناك إمام العبد ومحمد البابلى وغيرهما من الظرفاء . وكان هناك مقهى « متاتيا » المشهور وكان يؤمه ألمع أدباء ذلك العهد مثل خليل مطران وولى الدين يكن وإبراهيم الدباغ وفؤاد الصاعقة وغيرهم . وفى هذا المقهى كان حافظ يعرض شعره عليهم ولا يذيعه إلا بعد أن يرضوا عنه فى كثير من الأحيان .

وكان حافظ يقصد مقهى « سبلندد بار » حيث يلتقى هناك بمحبيه من السوريين الذين كانوا يؤثرونه ويتعصبون لشعره من أمثال الدكتور شبلى شميل وجورج طنوس وطنوس عبده وسليم سركيس والدكتور إبراهيم شدودى وغيرهم ، فيطارحهم ألوان الفكاهة والظرف وينشدهم أشعاره ، وكانوا كلهم يشقفون الشعر ويحسنون الحكم عليه . وكان يعرّج على « بار اللواء » العتيد ، فيجالس فيه داود بركات رئيس تحرير الأهرام وتوفيق فرغلى وغيرهما من رجال الصحافة الشاميين . وكان للشاعر النبيل خليل مطران فضل تقديم حافظ إلى السوريين الذين أحبوه وأشادوا به وبفنه .

وكان حافظ يتردد على « بار دركاتوس » و « بار الكستبان الأحمر » فيجد الأديب الكبير « محمد المويلحى » قد جلس إلى مائدة عليها قوارير الشراب وأقداحه ، ومعه نفر من الندمان ، فيشاركهم حافظ مجلسهم ويحتسى معهم بعض كؤوس الخمر حتى ينتشى وينتعش . وكان يخوض مع المويلحى فى أحاديث الأدب والسياسة والاجتماع ، وإليه بعث حافظ بخمريته السينية التى مطلعها [1] :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين همّ وبين ظنٍّ وحدس

وهى أجمل ما قاله فى الخمر ، ومنها :

يا غلام ، المُدامَ والكاس والطا س وهيئ لنا مكاناً كأمس

(١) الديوان ١/٢٤١ .

واسقنا يا غـلام حتى تـرانا لا نُطيق الكـلام إلا بهمس
خمرةً قيـل إنهم عصروهـا من خدود المـلاح فى يوم عرس
مذ رآها فتى العـزيز مناما وهـو فى السجن بين همّ ويأس
أعقبتْـه الخلاصَ من بعد ضيق وحبتْـه السعودَ من بعد نحس
يا نـديمى بالله قلْ لى لمـاذا هذه الخـندريس تُدعى برجس ؟

ولما أصدر المويلحى كتابه « حديث عيسى بن هشام » بعث إليه حافظ بقصيدة يقرظه بها مطلعها[1] :

قلم إذا ركب الأنامل أو جـرى سجدتْ له الأقـلام وهى جوارى

ويقول فيها مخاطباً المؤلف :

فاشرع يراعك يا محمد إنه نار اللئام وجـنة الأحـرار
وابعث لنا عيسى فهذا وقته فالناس بين مُخادع ومُوارى

وكان حافظ إبان شبابه العارم يتردد على ملاهى ذلك العهد المتصونة منها وغير المتصونة ، مثل مسرح الشيخ سلامة حجازى ، حيث يشنّف أذنيه بصوت الشيخ الرخيم ويشهد مسرحياته الراقية كمسرحية روميو وجولييت ، وصلاح الدين . ومثل مسرح سليمان القرداحى الذى كان يقدم بعض مسرحيات شكسبير وفكتور هيجو . وكان ينفتل من هذه الملاهى المتوقرة إلى أماكن اللهو العابث كملهى « سلطانة » ، والألدرادو القديم ، وملهى كامل الأصلى الممثل الهزلى فى شارع كلوت بك ، وملهى سيد قشطة وبمبة كشّر الشهيرة بحفلات الزار ، وغيرها من الملاهى .

وكان حافظ يُسيم سَرْح اللهو فى هذه الأماكن ما طاب له ذلك .

ولا شك أن حافظاً قد جنى من هذه المجالس كلها فوائد جُلّى زادت من ثقافته ونمّت معارفه ، وكانت مادة دسمة صاغ منها كثيراً من أفكاره .

---

(١) الديوان ١/١٥٠

٣
الصحف

وقد اتصل حافظ بالصحف التى كانت موجودة فى زمنه ، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين رجالها ، وكان يتردد على دورها ويقضى مع أصحابها ومحرريها الساعات الطوال ، فيتزود بمعارف مختلفة فى السياسة والأدب والاجتماع ، هذا إلى جانب ما كانت تمده به هذه الصحف من ثقافات مختلفة الطعوم والألوان . وكانت جميعها تفسح له صفحاتها وتشجعه وتدفعه نحو عالم الشهرة والالتماع ، ولهذا نجده وثيق الصلة بها كلها . فقد عرف الأهرام أم الصحف : وكانت منذ نشأتها تؤيد الحركة الوطنية وتذود عن مصر وتساند الدولة العثمانية ، لأنها ترى أن فى ذلك مناهضة لتدخل الأجانب فى شئون البلاد .

واتصل حافظ بصحيفة المقطم ، وكانت تظاهر الاحتلال الإنجليزى وتناهض الحركات الوطنية ، ولهذا نرى حافظاً ينشر فيها كل ما يتفق ومبادئها : فقد نشر فيها رثاءه للملكة فكتوريا سنة ١٩٠١[١] ، واستقبل فيها « السير مكماهون » عندما جاء إلى مصر معتمداً بريطانياً ومدحه ومدح دولته وأمل الخير على يديه بقصيدة مطلعها :

أى « مكمهون » قدمتَ بالـ ـقصد الحميد وبالرعاية
ماذا حملتَ لنا عن الـ ـملك الكبير وعن « غرايه »[٢]

وفى هذه القصيدة مدحٌ للمغتصبين يَنْدَى له جبين الوطنية خجلاً ، وسنشير إلى ذلك فى مكان آخر. ونشر حافظ فى المقطم أيضاً قصيدته التى مدح بها ملك الإنجليز إدوارد السابع فى تخاذل واستكانة . وفيها نشر تهنئته لأصحابها

(١) الديوان ٢/١٣٦ .
(٢) الديوان ٢/٨٢ .

بعيد « المقتطف » الخمسيني[١] سنة ١٩٢٦ ، ومرثيته للدكتور يعقوب صروف أحد أصحاب المقطم والمقتطف وقد توفى سنة ١٩٢٨[٢] .

واتصل حافظ كذلك بالشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » ، واشتدت صلته به ، وقد نشر حافظ فى صحيفته أبياتاً يحيّيه بها ويهنئه بالمؤيد فى ثوبها الجديد سنة ١٩٠٦ يقول فيها :

أحييتَ ميْتَ رجائنا بصحيفة ... أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحتْ مصلّى للهداية عندما ... سجدتْ برحب فنائها الأقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية ... وعلى مؤيدك القديم سلام[٣]

وقد أراد صاحب المؤيد أن ينافس به شوقى فلقّبه « بشاعر النيل » . ولما مات الشيخ رثاه حافظ بقصيدة طويلة مؤثرة سنة ١٩١٣ نشرها فى المؤيد؛ عدّد فيها مناقبه وأشار إلى ألمعيته[٤] . ويقول الأستاذ أحمد محفوظ : « وقد اختص حافظ المؤيد بقصائده فى العام الهجرى ومدح خلفاء آل عثمان والإشادة بمجد الأتراك ، ثم بالتنويه بفضل صاحبها فى خصوصياته ورفع شأن صحيفته »[٥] .

وكان حافظ على صلة وثيقة بمجلة المنار وصاحبها الشيخ محمد رشيد رضا الذى كان أخلص تلاميذ الإمام محمد عبده . وقد أنشئت هذه المجلة سنة ١٨٨٩ ، وكانت سجلاً لآراء الإمام فى الدين والسياسة والمجتمع ، وإلى ذلك يشير حافظ مخاطباً الإمام :

ثم أشرقْتَ فى « المنار » علينا ... بين نور الهدى ونور الصواب[٦]

وكان صاحبها صِنْوَ حافظ فى التلمذة على الإمام ، ولهذا اختصّها حافظ بمدائحه لأستاذهم الأكبر والتنويه بأفضاله وأياديه الغر .

---

(١) الديوان ١/١٥٤ .
(٢) الديوان ٢/٢٢٨ .
(٣) الديوان ١/١٥٠ .
(٤) الديوان ٢/١٧٢ .
(٥) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٠ .
(٦) الديوان ١/٢٣ .

وقد اتصل حافظ بالمرحومين إبراهيم المويلحى وابنه محمد صاحب « عيسى ابن هشام » ، وكانا قد أنشآ صحيفة أدبية سياسية اسمها « مصباح الشرق » ، وكان حافظ ينشر فيها بعض أشعاره .

وكان المرحوم جورجى زيدان صاحب « الهلال » صديقاً مخلصاً لحافظ ، وقد غمره بفضله ؛ فكان يشجعه ويقدمه ، وييسر له ارتياد مجالس العلم والأدب . وقد رثاه حافظ لما قضى رثاء يتحلّب وفاء وعرفاناً بالجميل :

وفى ذمتى لليـــازجىّ وديعـــة ... وأخرى لزيدان وقد سبقانى
فيا ليت شعرى ما يقولان فى الثرى ... إذا التقيا يوماً وقـــد ذكرانى
أيجمـــل بى هـــذا العقوق وإنما ... على غـــير هذا العهـــد قد عرفانى
دعـــانى وفائى يوم ذاك فلم أكن ... ضنيناً ولكن القريض عصانى[1]

وكان حافظ ذا علاقة وطيدة بالمرحوم سليم سركيس صاحب مجلة «سركيس»، وكانت مجلة طلية الأسلوب جميلة الإخراج أنشأها صاحبها سنة ١٩٠٥ وأصبحت مثلا يُحتذى لما جاء بعدها من المجلات . وكان سركيس صحفيًّا أريباً كريماً يعطف على الأدباء البائسين ، وكان ذا يد مشكورة على حافظ ، ويقول عنه الأستاذ أحمد محفوظ : « وكان نصيراً لحافظ وصديقاً له ، فهو أحد الصحافيين الذين روّجوا له ووضعوه مع شوقى فى مكان واحد ، وكان طويل الباع فى هذا ، يعرف أساليب صحفية تفضى إلى الغرض ، وكان ينشر لحافظ بعض قصائده ونوادره فى "ربورتاجات" شيقة طريفة »[2]. وقد قرأت فى صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٠٨ أن جماعة من السوريين أقاموا حفلاً لتكريم (نابغة النثر والشعر) حافظ إبراهيم فى فندق شبرد ، وكان الذى قدمه للمحتفلين (الكاتب المتفنن سليم أفندى سركيس) وقد أطراه أعظم إطراء وخلع عليه ألقاب العبقرية والنبوغ ، وكانت قصيدة حافظ (مسك الختام) ، وقد سماها « الأمتان تتصافحان » ومطلعها :

---

(١) الديوان ٢/١٨٣ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٣ .

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب [١]

وكان حافظ يعرف قدر هذا الصحفى فى عالم الصحافة والأدب ويثنى عليه ويجامله فى المناسبات . ومن ذلك أن سركيس أقام حفلاً يخصص ما يُجمع منه لمعونة ممثل قعدت به الشيخوخة ، وأسرة ممثل آخر اغتالته المنية ، وقد أنشد حافظ فيه قصيدة ملأها بإطراء سركيس ومداعبته منها :

لولا سليم لم يقل قائل ولم يَجُد من جاد بالأمس
لله ما أشجعه إنه ذو مِرّة فينا وذو بأس
يقوم فى مشروعه نافذاً كأنه « عنترة العبسى »
تلقاه فى الجد كما تبتغى وتارة تلقاه فى « الخلس »
سركيس إن راقك ما قلتُه فى معرض الهزل فقل « مرسى »
أقسم بالله وآلائه بعرشه باللوح بالكرسى
بالخُنَّس الكُنَّس فى سبحها بالبدر فى مرآه بالشمس
بأن هذا عمل صالح قام به هذا الفتى القدسى [٢]

وتأثر حافظ أشد تأثر بصحيفتى « التبكيت والتنكيت » و « الأستاذ » اللتين أنشأهما متعاقبتين خطيب الثورة العرابية المرحوم السيد عبدالله نديم ، وكانتا تنشران نكتا ساخرة تحمل فى طياتها النقد اللاذع للحكم وأساليبه الجائرة .

وقد ظهرت إبان ذلك صحيفة كانت شديدة الخطر على أعراض الناس هى صحيفة « حمارة منيتى » . وكان صاحبها « توفيق الحمارة » رجلا سليط اللسان ينهش أعراض الناس ولا يتورع عن التقول عليهم ، فكانوا يتحامونه ويسدّون فاه بالمال . وكانت هذه الصحيفة تشهّر بالإمام محمد عبده بإيعاز من السراى وتضيف إليه — بالباطل — كل مثلبة . وبلغ من افترائها أن دسّت عليه صورة كاذبة يبدو فيها الإمام وبيده كأس مترعة بالخمر وهو فى أوربا [٣] ، وقد انبرى حافظ

---

(١) اقرأ القصيدة فى الديوان ١/٢٦٨ بعنوان (سورية ومصر) .
(٢) الديوان ١/٢٩٦ .
(٣) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٦ .

للدفاع عنه بقصيدة قال فيها :

إن صوّروك فإنما قد صوروا تاج الفخار ومطلع الأنوار
أو نقّصوك فإنما قد نقّصوا دين النبي محمد المختار
سخروا من الفضل الذى أُوتيتَه والله يسخر منهم فى النارَ
لا تجزعنّ فلستَ أول ماجد كذبتْ عليه صحائف الفُجّار
رسموا بذاتكِ للنواظر جنة محفوفة بمكاره الأشعار
وتقوّلوا عنك القبيح وهكذا يُمنى الكريم بغارة الأشرار(١)

أما صحيفة « اللواء » فقد عرف حافظ طريقه إليها سنة ١٩٠٦ حين نظم قصيدة فى حادثة دنشواى المشئومة وأرسلها إلى الصحيفة فرحب بها الزعيم مصطفى كامل ونشرها فى مكان بارز من صحيفته ، ففرح حافظ بهذا الظفر ، وأخذ يقلد الزعيم عقود المديح ، فأدناه الزعيم وفتح له صدر « اللواء » ينشر فيها قصائده ، وأطلق عليه لقب « شاعر الوطنية » . ثم اشتدت الصلة بين الزعيم والشاعر ، وأخذ حافظ يشيد بوطنية الزعيم وينشط فى مناصرة حزبه رغم اتصاله بخصومه السياسيين فخلع عليه مصطفى لقب « شاعر الحزب الوطنى » . وقد زادته هذه الصلة ذيوعَ صيت ونباهة ذكر ، حتى إنه طغى على كثير من شعراء ذلك العصر . ولما مات الزعيم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ اهتز حافظ لهول الفاجعة وبكاه بشعر يُتعتع النفوس ويزلزل الأفئدة . وسنشير إلى ذلك فى موضع آخر .

ولا ريب فى أن الصحافة كانت منبعاً فياضاً استقى حافظ منه ألواناً مختلفة من الثقافات كانت تُمدّه بكثير من الأفكار التى صاغها فى شعره .

---

(١) الديوان ١/٢٦ .

٤

الأساتذة

اتصل حافظ بأعلام الأدب والعلم الذين اشتهروا فى عصره ، ونهل من بحار علمهم . وكانوا له كالأساتذة يأخذ عنهم ضروباً من العلم والمعرفة ، وكان يلتقى فى مجالسهم بالعلماء والأدباء والشعراء . ولعل من أشهر هؤلاء الأعلام السيد توفيق البكرى ، وكان حافظ يتردد على داره بحى الخرنفش ويلقى هناك نفراً من أفاضل العلماء أمثال الشيخ الشنقيطى والشيخ محمد الخضرى والشاعر اللغوى حفنى ناصف . وكان صاحب الدار وضيوفه يخوضون فى أحاديث الأدب واللغة ، وليس من شك فى أن حافظاً قد تزود من هؤلاء المشيخة بقدر طيب من ألفاظ اللغة وتراكيبها ، وساعده على ذلك حافظة لاقطة وذاكرة واعية .

وكان حافظ يتردد على منزل الشاعر إسماعيل صبرى ويلتقى هناك بكثير من الشعراء أمثال شوقى ومطران وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم المصرى وغيرهم من شباب الشعراء وكانوا جميعهم يعتبرون إسماعيل صبرى أستاذهم ويلقبونه « بشيخ الشعراء »[1] ويعرضون عليه أشعارهم ويستهدون بآرائه القيمة فيها ، وإلى ذلك يشير حافظ فى رثائه :

لقد كنتُ أغشاه فى داره ... وناديه فيها زهـا وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع ... لطيف يحسّ نُبـوّ الوتر
على سمع باقعـة حاضر ... يَميـز القـديم من المبتكر
فيصقل لفظى صقل الجُمان ... ويكسوه رقة أهـل الحضر
يرقرق فيـه عبير الجنـان ... فتستاف منه النُّهى والفِكَر[2]

---

(١) شعراء الوطنية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٣٠ .
(٢) الديوان ٢/٢١١ .

فأنت ترى حافظاً يعترف بما كان لإسماعيل صبرى من فضل فى تهذيب شعره وصقله . ويحكى مؤرخو الأدب أن شوقى كان أكثر ملازمةً له من حافظ [١] ، ويقولون إنه قلما كان يظهر قصيدة فى مبدأ أمره إلا بعد أن يعاود أستاذُه صبرى النظرَ فيها ويُجيز إعلانها . ويشير شوقى إلى أنه كان يجرى فى غبار أستاذه فيقول من قصيدة يرثيه بها :

أيام أمرح فى غبـــارك ناشئا ... نهج المهار على غبار خصاف
أتعلم الغـــايات كيف تُرام فى ... مضمار فضل أو مجال قواف

والحق أن إسماعيل صبرى كان شاعراً رقيقاً عميق الوجدان يجيد نظم المقطوعات يعبر بها عن معان دقيقة عاطفية .

بيد أن هناك أستاذين عظيمين كان لهما أثر بليغ فى فن حافظ وفى ثقافته وفى عقله جميعاً ، وقد رأينا أن نخصهما ببعض العناية فنسوق كلمة عن كل منهما ونبين مدى صلة حافظ به . وهما الشاعر محمود سامى البارودى والأستاذ الإمام محمد عبده :

البارودى : هو رب السيف والقلم كما يلقبونه ، تخرّج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥ والتحق بخدمة الجيش المصرى واشترك فى بعض الوقائع الحربية فأظهر بطولة فذة وشجاعة نادرة ، مثل حرب كريد سنة ١٨٦٦ ، والحروب التى كانت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧٧ . وقد أبلى فى هذه الوقائع بلاء حسناً ، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية فانطلق لسانه بشعر جزل رصين يصفها ويصور أهوالها .

وقد أخذ البارودى يتوقل فى مدارج الرقى حتى وصل إلى رتبة اللواء ، وعُين مديراً للشرقية ، وكان محافظا للعاصمة حين اختاره شريف باشا وزيراً للمعارف والأوقاف فى وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ فى أوائل عهد الخديو توفيق .

ولما شبت الثورة العرابية كان البارودى من زعمائها النابهين ، وقد تولى رآسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢ . ثم مُنيتْ الثورة بالفشل فنُفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) ، وظل فى منفاه نيفاً وسبعة عشر عاما كان فيها مثالاً للإباء

(١) شاعرا العروبة ص ٤٨ .

والشمم وعلو النفس ، واحتمل آلام النفى بشجاعة وصبر وإيمان ، وله شعر يفيض بهذه المعانى السامية . ولعل خير ما يصور به نفسه ومذهبه قوله :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا   وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى   نفس حر ترى المذلة كفرا[1]

ثم عفا عنه الخديو عباس فعاد إلى أرض الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه ، وظل فى عزلة عن الناس بعد عودته من المنفى ، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء إلى أن لبى نداء ربه سنة ١٩٠٤ .

ولقد كان الشعراء قبل البارودى يعتبرون الشعر وقفاً على من كان ملماً بالعروض ، محيطاً بأطرافه واقفاً على ضروب البديع المختلفة. وكان هؤلاء الشعراء ينظمون الشعر نظماً لأنهم قد تعلموا العروض وحذقوه ، ورأوا أن النظم أصبح حقاً واجباً على كل من تعلم العروض وألم بفنون البيان والبديع وما إليهما ، فصاروا يطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، ولذا كانت دواوينهم أشبه شيء بكراسات التطبيق فى معاهد التعليم على حد تعبير الأستاذ عباس العقاد[2].

والواقع أن الثورة العرابية تعتبر حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين للشعر. فقد نشطت بهذه الثورة الحياة القومية بعد فتورها زماناً طويلاً ، وأخذ الناس يغالبون سلطان الأجنبى ، وأدركوا قيمة العلم فأقبلوا على موارده ينهلون ويعلون ، وساعدهم على ذلك حركة المطابع التى نشطت فى إخراج كتب الأدب القديم ، فكثر المتعلمون واشتدت الصلة النفسية بينهم وبين الشعب ، وزاد اتصال الأمة بالثقافة الأوربية ، وتغلغل فى أعماق المصريين الشعور الوطنى والإحساس العميق بما هم فيه من بخس وإهمال .

ومن هنا ظهر الشعر المطبوع على عهد الثورة العرابية، ونشأ جيل من الشعراء على نمط حديث ، فأخذ ينظم الشعر عن بواعث عاطفية ودوافع وجدانية . وندر أن تجد واحداً منهم يلم بشيء من العروض ، بل إن البارودى ، درتهم

---

(١) ديوان البارودى ١/٥٩ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٩ .

اللامعة ، كان يجهل مصطلحات النحو . ولكن كان شعرهم أصدق طبعاً وأشد أسراً من شعر هؤلاء العروضيين .

ويعتبر الشاعر محمود صفوت الساعاتى حلقة الاتصال بين هاتين الطائفتين من الشعر ؛ فقد كان يعمد إلى اصطناع ألوان البديع ولكن فى شىء من الاعتدال والتجديد ، أو بعبارة أصح — كما يقول الأستاذ العقاد — كان يلبس أزياء هؤلاء العروضيين ثم يخرج على صفوفهم ويقف فى عدوة الطريق بينهم وبين طبقة المطبوعين التى جاءت بعدهم .

وليس من شك فى أن رائد هؤلاء المطبوعين وإمامهم وطليعتهم الأول وأستاذهم الأكبر هو الشاعر الفحل محمود سامى البارودى ، فقد جاء كالقدر الغالب لينقذ الشعر العربى من أن يصير رمة بالية كانت خليطاً من الصنعة والضعف والابتذال .

جاء البارودى فكان باعث النهضة الشعرية الأول فى العصر الحديث ، لأنه ارتفع بالشعر إلى منزلة الفحول من شعراء العصر العباسى ، وأعاد له ديباجته القوية وفحولة عبارته ومتانة قوافيه ، وخلّصه من تلك الأصفاد التى كان يرسف فيها من الزخارف اللفظية والمعنوية التى يختفى وراءها المعنى الغث والفكرة السوقية المسفّة . وقد بيّن صديقى الأديب الدكتور شوقى ضيف فضل البارودى على الشعر فى صورة بديعة فقال : « وكان البارودى قد خلع عن شعره كل العقد التى كان يحجل فيها الشعراء من قبله أمثال الدرويش والخشاب ومن حوله أمثال الساعاتى وعلى الليثى ، ونفخ فيه روحا جديدة من الأصالة ، وأزال عنه كل ما يعوقه من أعشاب البديع ، فانفجر النبع وتدفق الشعر والفن . وكلنا نعرف أن البارودى رجع بالشعر إلى أساليبه القديمة الجزلة الرصينة ، أخرجه من حيز المعانى المحفوظة التى تُرصّ رصًّا إلى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف والعصر وحوادثه النفسية . فكان بذلك زعيم نهضة محققة فى شعرنا أثناء القرن التاسع عشر »[1].

ويتضح مما قلناه أن البارودى قد ثار على مذهب السابقين من ناحيتين :

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص ٤٦ .

ناحية الآلة وناحية الصورة . أما من ناحية الآلة فلم يَجْرِ وراء شوارد العروض التى كانت تُعتبر شرطاً فى خَلْق الشاعر. بل إنه كان لا يعرف شيئاً من قواعد النحو ، ويقول أستاذه الشيخ حسين المرصفى : « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سنّ التعقل وجد فى طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته ، حتى تَصوّر فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، ثم استقلّ بقراءة دواوين مشاهير الشعراء حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مُدركاً ما كان ينبغى وفق مقام الكلام وما لا ينبغى ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء »(١).

وأما من ناحية الصورة فإنه خلص الشعر من هذه الألوان البديعية المبتذلة التى كانت تشبه أشرطة الزخرفة المتنوعة تزيّن بها أثواب العرائس فى القرى التى لم تنل حظًّا من المدنية، فإذا بلوْتَ خامات هذه الأثواب ألفيتها من نوع ردىء رخيص .

ولم يقف جهد البارودى عند حد استرجاع الديباجة الجزلة القديمة والسمو بالمعانى التى تصور النفس البشرية القوية ، فقد جدّد فى كثير من أغراض شعره على غير مثال سبقه من معاصريه ، واستحدث نماذج لمن أتى بعده من الشعراء فى أبواب الوصف والشعر السياسى والهجاء الاجتماعى والرثاء والفخر ، وأظهر أن للشاعر رسالة سامية هى التعبير بإخلاص عن خلجات نفسه وتجاربه فى وضوح وقوة . كما أنه خلص الشعر من الوصمة التى لحقت به آماداً طويلة وهى أنه وسيلة للتكسب . فترفّع عن المديح الباطل الذى يراد به الزلفى ، وعن الهجاء الشخصى الذى يشغل النفس بالتوافه ، وقال بيته المشهور :

والشعر زين المرء ما لم يكن   وسيلة للمـــدح أو للـــذم

وكان البارودى مجدّداً حتى فى محاكاته للفحول القدامى ومعارضته لهم ،

---

(١) الوسيلة الأدبية ٢/٤٧٤ .

وإن كان يسلك أحيانا سبيلهم فى فنون من الشعر لم يكن يحس بها أو يعرفها مما ليس له معنى فى هذا العصر ، كمساءلة الدمن والبكاء على الأطلال وما إليهما من خصائص الشعر القديم . ولو لم يكن للبارودى من فضل إلا أنه ردّ إلى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة فحول العرب الأقدمين فى ميدان اللغة والأساليب وسطوة العبارة بما أتقن من معارضتهم فى المذاهب ومجاراتهم فى النظم — أقول لو لم يكن له إلا هذا الفضل لكفى .

ومن غريب الأمر أن هذا الإمام السبّاق لم يعطنا صورة واضحة المعالم لعصره ، ولم نر فى شعره صدى للأحداث الوطنية الكبرى التى عاصرها . فمع أنه كان من زعماء الثورة العرابية وقوادها العظام لم تظفر هذه الثورة منه بقصيدة يشيد فيها بمبادئها أو يستثير حماسة الأمة ويدعوها للالتفاف حول زعمائها ، ولكنه كان يقصر مشاركته فيها على دور القائد الحربى والوزير السياسى ليس غير . أما وصف شعور الشعب أو إذكاؤه بحماسة القصيد فلم يكن له حظ من شعره .

ويرى الأستاذ العقاد أن البارودى وأمثاله من شعراء الطليعة كإسماعيل صبرى وشوقى وحفنى ناصف « لم يعرضوا لنا فى شعرهم إلا قليلا من معارض الشعور فى الحياة الشعبية » ، ويعزو ذلك إلى « أنهم عاشوا فى حيز الوظائف ولم يعيشوا فى غمرة الأمة بين دوافع المد والجزر وعوامل الشدة والرخاء »[1] .

ولكنى أرى أن البارودى بالذات كان إبان الثورة العرابية أشبه بالمتحلل من قيود الوظيفة التى كان يفرضها ولاة الأمر آنذاك فى شىء من الصرامة والاعتساف ، وبخاصة بعد أن جاهر زعماء الثورة بخروجهم عن طاعة الخديو ووصْمه بالمروق من الدين والوطن وأيّدهم فى ذلك كثير من شيوخ الأزهر ، وانطلقت إليهم وفود الأمة من جميع الطبقات تشد أزرهم وتبايعهم على الطاعة والتضحية بالأنفس والأموال .

وخير تفسير لهذه الظاهرة أن الثورات تعتمد دائماً فى خدمة مبادئها واجتذاب

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٤ .

الجماهير إليها على الكُتّاب والخطباء أكثر من اعتمادها على الشعراء . وأوضح شاهد على ذلك الثورة الفرنسية كبرى ثورات العصر الحديث ، فلم يُذكِ نارها إلا الكُتّاب والخطباء من أمثال فولتير وروسو وميرابو ومنتسكيو رغم وجود الكثير من الشعراء . بل إن من كان منهم يجمع بين صناعتى الشعر والكتابة لم يستثر نفوس الجماهير فى هذه الثورة الكبرى إلا بنثره .

ولما قام « أوليفر كرومول » بثورته المعروفة ضد الملك « شارل الأول » الإنجليزى لم ينظم صديقه الحميم « جون ملتون » صاحب « الفردوس المفقود The Lost paradise » فيها قصيدة واحدة . وقل مثل ذلك عن شعراء إيطاليا مثل دانتى ومانزونى وبترارك وغيرهم من الشعراء الذين شهدوا القلاقل والثورات القديمة والحديثة فى البلاد الإيطالية .

وقد فطن إلى هذه الظاهرة قبلنا الأديب الكبير الأستاذ العقاد فقال : « إن الثورات لم يكن لها قط شاعر يحرضها كما يحرضها الخطباء والكتاب . وإنما توحى الثورة إلى الشاعر معانى ثورية ولا تتخذ أداة لها فى تسعير نيرانها والكلام بلسانها. وهكذا كان شأن كبار الشعراء أو الشعراء النابهين الذين ظهروا فى إبان القلاقل السياسية وما يشبهها من فورات المجتمع فى الأمم كافة »(١) .

فالثورات دائماً لها خطباؤها وكُتّابها العظام وليس لها شعراء من هذا الطراز إلا فى النادر القليل . وسر ذلك — كما يقول الأستاذ العقاد — « أن الثورة عمل اجتماعى تناهبه الخطابة لأنها وظيفة اجتماعية ، وليس الشعر كالخطابة فى هذه الخصلة لأنه عمل فردى فى لبابه ، ولا سيما بعد ما ارتقى إليه الشاعر من الأطوار فى العصور الحديثة ، إذ ليس الشاعر اليوم بوقاً من أبواق القبيلة كما كان عند الهمج الأوائل ، يغنى لها ويرتل معها و يقوم مقام النائحة فى أحزانها أو الشادية فى أفراحها »(٢) .

ولقد أصاب الأديب الكبير كبد الحقيقة : فللشاعر فى العصر الحديث

---

(١) شعراء مصر ص ٩١ .

(٢) شعراء مصر ص ٩٢ .

شخصية فردية لا تصعد إلى آفاق الفن القوى الصادق إلا إذا خلت إلى نفسها وعبرت عن أحاسيسها . وليس ذلك مما تهيئه الثورات .

ولرب قائل يقول : فما بالنا نرى الأناشيد يدوّى صداها فى جوانب الثورات؟ والرد على ذلك يسير ؛ فالأناشيد أشبه ألوان الشعر بالخطابة ، إذ تحتاج إلى الجماهير لترديدها كما تحتاج إلى الموسيقى ،فى الوقت نفسه .

وبعد ، فهذه لمحة موجزة عن البارودى إمام شعراء العصر الحديث . وقد احتذى الشعراء على طريقته وجروا فى غباره من أمثال شوقى وحافظ وعبد المطلب والجارم وأحمد محرم وغيرهم . وتتميز مدرسة البارودى — كما أشرنا — بالرصانة والقوة ونصاعة الديباجة وفحولة العبارة وشدة الأسر ووضوح المعنى .

وحافظ — فى نظرى — أشد تأثراً بالبارودى من زميله شوقى ، فقد وقف عند منهج أستاذه ولم يحاول التجديد إلا فى حدود ضيقة . أما شوقى فقد مضى فى تجديده قدما وخرج بفنه إلى أفق أوسع وميدان أفسح .

وكان حافظ شديد الإعجاب بأستاذه. ولا ريب فى أنه لم يتّجه إلى الجندية إلا رغبة فى أن يسلك مسلك أستاذه ، فأراد أن يكون له من السيف والقلم ما كان لأستاذه منهما . ولكن الزمن سخر منه ولم يحقق له إلا أحد شطرى أمنيته ، فلم يظفر بما كان يحلم به فى ميدان الفروسية والحرب ولكنه أصبح من أنبه شعراء العصر الحديث ذكراً .

وكان حافظ يذهب إلى أستاذه فى داره الفسيحة بغيط العدة بالقرب من باب الخلق[1] بعد أن آب من منفاه ، وهناك كان يلتقى بلفيف من شباب شعراء ذلك العهد فيتحلقون حول أستاذهم العظيم ويعرضون عليه ما أنتجته قرائحهم ، وكان الأستاذ لا يضن عليهم بتوجيهاته الغالية ويتحفهم الحين بعد الحين بآخر ما نظمه من رائع القصيد . وقد أنشده حافظ داليته[2] التى يمدحه فيها ويُقرّ له بالأستاذية والفضل ، ومطلعها :

---

(١) شعراء الوطنية ص ١٨ .

(٢) الديوان ١/٧ .

تعمدتُ قتلى فى الهوى وتعمـــدا فما أثِمتْ عينى ولا لحظهُ اعتدى

وفيها يخاطب البارودى قائلا :

أمـــيرَ القوافى إن لى مسْهامـــةً بمدحٍ ومَنْ لى فيك أن أبلغ المدى
أعرْنى لمدحيك اليراع الذى به تخط وأقرضنى القريض المسدّدا
ومُرْ كل معنًى فارسىّ بطاعتى وكل نفـــور منه أن يتـــودّدا
وهبنىَ من أنوار علمك لمعـــةً على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى
وأربو على ذاك الفخـــور بقوله : (إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا)

ولما توفى البارودى رثاه حافظ بقصيدة رائعة مطلعها :

رُدُّوا علىّ بيانى بعـــد « محمود » إنى عييتُ وأعيا الشعر مجهودى[1]

وسنتحدث عن هذه المرثية فى موضعها المناسب .

وقد تأثر حافظ بأستاذه أشد تأثر من ناحية إيثار الجزالة وقوة العبارة ، ولكن هذه الظاهرة أكثر بروزاً عند البارودى منها عند حافظ ، لأن الفخر الذى كانت تتشح به نفسيته أشد فنون الشعر حاجةً إلى الألفاظ المجلجلة الفخمة التى تملأ النفس وتهز المشاعر .

ولست أشك فى أن حافظاً قد تزود أيضا بقدر طيب من محصول أستاذه اللغوى إلى جانب تهذّيه بفنه ، وكان البارودى معروفاً بسعة محصوله كما يشهد بذلك شعره .

محمد عبده : هو الإمام الحكيم والمصلح الكبير وفيلسوف الإسلام العظيم . وقد حفظ القرآن الكريم فى قريته « محلة نصر » من أعمال مديرية البحيرة ، ثم أشخص إلى طنطا حيث أخذ قسطاً من العلم فى الجامع الأحمدى ، وتحوّل بعد ذلك إلى الجامع الأزهر . وفى هذه الأثناء هبط الزعيم الإسلامى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى أرض مصر ، فكان الشيخ محمد عبده من أوائل من استوَوْا إلى دروسه ولازموا مجلسه وأصاخوا لدعوته ومبادئه ، وكان أشدهم حرصاً على ملازمته والاستفادة منه . ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ ، واختير مدرساً للأدب

---

(١) الديوان ١/١٣٩ .

والتاريخ العربى بدار العلوم ومدرسة الألسن ، ثم وقع اختيار رياض باشا عليه لإصلاح لغة « الوقائع المصرية » ثم صار رئيس تحريرها ، وأضيف إليه أمر مراقبة الكتابة فى الصحف .

ولما شبت الثورة العرابية كان من النافخين فى ضرامها والخائضين غمارها ، فلما خبت نيرانها نُفى من مصر فرحل إلى سوريا وأقام بها حيناً من الدهر وتولى التدريس بمدارسها . وفى أثناء ذلك وضع شرحاً لنهج البلاغة ومقامات بديع الزمان . ثم انتقل إلى باريس ليلحق بأستاذه جمال الدين ، وهناك أصدرا صحيفة « العروة الوثقى » داعية إلى توحيد كلمة المسلمين ورفع النير الأجنبى عنهم . ثم عُفى عنه فعاد إلى مصر وعُين قاضياً فى المحاكم الأهلية ، وبعد فترة رُقّى مستشاراً فى محكمة الاستئناف العليا . وكان — رحمه الله — مدة اشتغاله بالقضاء قاضياً عظيماً تُضرَب الأمثال بكفايته وقوة استنتاجه ومتانة أحكامه . ثم أُسند إليه منصب الإفتاء بالديار المصرية ، وكان أثناء عمله هذا يقرأ فى الأزهر كتباً فى البلاغة والمنطق وصدْراً من تفسير كتاب الله الكريم . وكان يفسر القرآن تفسيراً طريفاً لا عهد للناس به من قبل ، يوفّق فيه بين آيه الحكيمة وبين موجب العقل والحكمة ، ويبين فى منطق واضح مسايرة أحكامه لمقتضيات الحضارة والعمران . وقد أقبل الناس على حلقته ينهلون من هذا النبع الصافى الذى لم يذوقوا له من قبل مثيلاً .

وكان له فضل تنظيم الأزهر وإدخال طَرَف من العلوم الحديثة إليه إبان أن كان عضواً فى مجلس إدارته . وما برح فى منصب الإفتاء حتى قُبض إلى رحمة الله سنة ١٩٠٥ ، فكان حزن العالم الإسلامى عليه شديدا .

وكان الإمام — رحمه الله — يمتاز بحدة الذكاء ووثاقة العقل وقوة الشخصية ، كما أوفى على الغاية من اللَّسَن وصولة الحجة .

وكان حافظ الضابط الشاب يلمّ بحلقة الإمام عصر كل يوم فى الأزهر فتمتلىء نفسه إعجاباً ، لأنه يرى منه منطقاً فى التفكير لا عهد له به من قبل ، فيلزم الحلقة ، ويزداد إعجابه بالشيخ ، فيدبج له قصائد المديح والإطراء

ويمهرها بكلمة « فتاك » . ولما سافر حافظ إلى السودان لم تنقطع رسائله عن أستاذه يستصرخه لينقذه مما يعانيه من شظف الحياة ، ولما عاد من السودان صفر اليدين من الوظيفة لزم أستاذه ووقف نفسه على مجاهدة خصومه وعدّ نفسه شاعره وفتاه ، وظل عائشاً فى كنفه وبره خمس سنوات قلما كان يفارق مجلسه فيها ، فأفاد منه علماً وخلقاً وإدراكاً صحيحاً لشئون الحياة . كما أفاد من مجلسه التعرف إلى عظماء مصر وكبار رجالاتها وقادة الرأى فيها أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم من زعماء السياسة والفكر والأدب . وكانت مجالس الإمام مُطارحةً لألوان العلم والعرفان ، وعَرْضًا لأحوال مصر خاصة والبلاد العربية عامة وتَبيُّن عيوبها ومحاولة إصلاحها. وقد أفاد حافظ من ذلك كله ثقافة مختلفة الطعوم شهية المذاق ما كان يجدها فى الكتب والدفاتر . كما عرف عن أستاذه مناهج التفكير المسدّد ومسالك الجدل القويم ، وإلى ذلك يشير حافظ بقوله :

يا أميناً على الحقيقـــة والإفـ ... ـتاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمـــام فى موطن الرأ ... ى ونعم الإمام فى المحـــراب
أنت علّمتنا الرجوعَ إلى الحـ ... ـقّ وردَّ الأمور للأسباب
ثم أشرقْتَ فى « المنار » علينا ... بين نور الهدى ونور الصواب
فقرأنا على ضيائك فيـــه ... كلمات المهيمن الوهاب
وسكنّا إلى الذى أنـــزل الله ... وكُنّا قبله فى ارتياب (١)

ويصف حافظ مجالس الأستاذ الإمام — رحمه الله — وما كان يدور فيها من علم وهداية ويشير إلى شدة قربه منه فيقول : فلقد كنتُ ألصقَ الناس بالإمام ، أغشى داره وأرد أنهاره وألتقط ثماره ، فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة ، قبحها الله ، ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ويتنقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى فأفاض فى شئون الاجتماع وحاج العمران ووقف بنا على أسرار الحياة . ولم يزل ذلك همه

(١) الديوان ١/٢٣ .

رحمه الله ؛ يُلقى فى الأزهر دروس التفسير وفى داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله »[١] .

وكان الأستاذ الإمام حينما عاد من منفاه سنة ١٨٨٩ قد طلق السياسة ، لأنه رآها سبب الكوارث والنكبات ، وآثر أن يكرّس وقته وجهده لخدمة الدين والمجتمع والأخلاق ، فذلك أجدى على الإسلام والمسلمين فى ظروفهم آنذاك من الاشتغال بالسياسة . فإذا عرف المسلمون أمر دينهم الحق وأصلحوا مجتمعهم وأخلاقهم وَضَحتْ أمامهم السبيل لإزاحة نير الاحتلال عن كواهلهم واسترداد أمجادهم .

وقد رأى الإمام أن خير ما يعينه على تأدية هذه الرسالة مهادنة الإنجليز ، فإن ذلك أدعى إلى جلب الطمأنينة له ، ومن ثَم يستطيع أن يسير قدما فى طريق الإصلاح الذى ينشده . ولهذا عقد بينه وبين « اللوزد كرومر » معتمد بريطانيا فى ذلك الوقت علاقة كانت تبلغ حد الصداقة ليكون فى حصن مكين ضد نقمة الخديو عباس .

وقد أخذ الناس على الإمام تقاعسه عن الجهاد السياسى وملاينته الإنجليز ، وبخاصة وأنه كان رجلاً مسموع الكلمة خطير المكانة فى دار المعتمد البريطانى . وأنا أرى أنه كان على حق فى انتهاجه هذه السياسة ، لأن ذلك قد وقاه شر النفى والتشريد والتصدى ، ومكّنه من أن ينصرف إلى تأدية رسالته الإصلاحية التى أشرنا إليها ، ولا سيما أنه لم يبعد العهد بينه وبين ما أصاب أستاذه جمال الدين من العنت والاضطهاد ، وإلى جانب ذلك يشير حافظ فيقول : « ولولا أن الإمام مادّهم حبل الود وجاذبهم فضل النصح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرّة القوم ويصلح ما تفسده أيدى الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ودفع كارثاً . ولو كان حيّاً يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى " دنشواى " لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك

(١) ليالى سطيح ص ١٢١ .

التهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير الذى جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور »[١] . ويقول شيوخ السياسة إن محمد عبده جنّب البلاد كثيراً من شرور المحتلين باتخاذه هذا المذهب (مذهب ملاينة الإنجليز) وليس بخاف علينا ما كان عليه هؤلاء القوم فى ذلك الزمان من قوة وجبروت ، وما كنا عليه نحن من ضعف وتخاذل واضمحلال .

والواقع أن صلة الإمام بالمعتمد البريطانى كانت تقوم على المهادنة لا المداهنة ولم يُؤثَر عنه أنه تجاوز حد المهادنة إلى وضع لا يُحمد عليه من مدحٍ للإنجليز ، أو تحبيذٍ لسياستهم . بل إنه كان يهاجمهم فى عنف وشدة فى كثير من الأحيان . وقد سافر إلى لندن حينما كان مبعداً عن الديار المصرية وهاجمهم فى عقر دارهم ، وبيّن لهم بالمنطق السليم سوءَ عملهم وعدم شرعية احتلالهم[٢] .

على أن رسالة الإمام الإصلاحية كانت تدفعه أحيانا إلى أن يحتك بالسياسة هوناً ما فى حدود ما تحتاجه هذه الرسالة . وفى ذلك يقول تلميذه حافظ : « لكنه كان يحتك بها (أى السياسة) ما دعت إلى ذلك الحالة ، ويرصد حركاتها رصداً ، ويصدّ غاراتها صدًّا خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو أن تقف عثرة فى طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعتْ عليه سبل أمانيه وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه... ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليردّ عاديته ويفسد عليه سياسته »[٣] .

وهكذا كان الإمام يمسّ السياسة مسًّا ويخوض غمارها بقدر ، حتى إذا أدرك مبتغاه انسلّ منها انسلالاً وهو يشمر أذياله خشية أن تفسد عليه عمله ، لأنه — كما يقول حافظ — « كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها ، حتى أعلن براءته من الالتصاق بها » .

والحق أن مجالس الإمام — رحمه الله — كانت مدرسة يتخرج فيها جيل

---

(١) ليالى سطيح ص ١٢٢ .

(٢) اقرأ الفصول القيمة التى كتبها عنه فى هذه الناحية الدكتور عثمان أمين فى كتابه « رائد الفكر المصرى » .

(٣) ليالى سطيح ص ١٢١ .

من الشباب مُستنير العقل واسع الأفق متوثبُ الروح . وصلق حافظ حين سمى تلاميذ الإمام « حزب العلم والعرفان » ، وتعاليمه « سياسة التقدم والعمران » .

وكان حافظ من أقرب الناس إلى قلب أستاذه حتى إن الإمام كان يسارّه ببعض أموره الخاصة ، يقول حافظ : صحبته مرة فى إحدى روحاته إلى عين شمس ، وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام ، وكنت أتبسط معه على الحديث . فكان مما ذكر لى فى هذه الليلة أنه أُلقِي إليه كتاب كتبه صاحبه، وإبليس جاثم بين كتفيه، ينذره فيه بالقتل ويتوعده بالاغتيال — ذكر ذلك كمن يذكر نبأ من الأنباء التى يسوقها الحديث ، فلم ألمح على وجهه ما ينمّ عما وقع فى نفسه من أثر ذلك الكتاب ، ثم خاض فى غير ما أخذ فيه . . . »[1] .

وكان بعض الحساد ينفسون على حافظ قربه من الإمام، ويسعون جاهدين فى أن يفرقوا بين التلميذ وأستاذه ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن ينالوا من هذه العلاقة الموثقة منالاً ، وإلى ذلك يشير حافظ قائلاً :

أيهــذا الإمــام أكثرتَ حُسا ... دى فباتت نفوسهم فى التهاب
أبصروا موقفى فعــزّ عليهم ... منك قربى ومن عُلاك انتسابى
أجمعوا أمرهم عشاء وباتوا ... يُسمعون الورى طنين الذباب
ونسوا ربهم وقالوا ضمنّــا ... بُعده من رحاب ذاك الجناب
قل لجمــع المنافقين ومنهم ... خُصّ بالقول عبدَ أمّ الحباب
إن نفس الإمام فوق منــاهم ... ما تمنوْا وإننى غير صابى
شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا ... وولائى فى عنفوان الشباب[2]

وبعث حافظ ذات مرة بهذين البيتين إلى الإمام معتزاً بعلاقته به ، هذه العلاقة التى يتيه بها على الناس ، والتى يحسدونه من أجلها :

لقد بتُّ محسوداً عليك لأننى ... فتاك ، وهل غير المنعَّم يُحسد
فلا تُبلغْ الحسادَ منى شماتةً ... ففعلك محمود وأنت محمد[3]

---

(١) ليالى سطيح ص ١١٣ .
(٢) الديوان ١/٢٣ .
(٣) الديوان ١/١٩٥ .

ويقول الدكتور سامى الدهان إن حافظاً قد اتبع سياسة أستاذه[١] ، ولكن الواقع ينطق بغير هذا ؛ فقد تحوّل حافظ من سياسة المهادنة التى رسمها أستاذه إلى سياسة المشايعة التى كانت تبلغ حد الملق والرياء ، من إطراء للمحتلين ، وتهنئة لملكهم حين يستوى على العرش وغير ذلك مما سنعرض له فى موضعه ، حتى لقد قال البعض إن حافظاً كان يسعى من وراء ذلك إلى نفع خاص .

والواقع أن حافظاً طول حياته لم يكن ذا لون سياسى ثابت ، ولكنه كان يميل حيث تميل الريح منذ أن عرفت مصر الأحزاب السياسية واصطبغت بألوانها الحياة البرلمانية .

مهما يكن من شىء فقد كانت صحبة حافظ للأستاذ الإمام خيراً وبركة ، وقد جنى منها حافظ أكرم ما جناه فى حياته من علم وثقافة ونور وحدب ورعاية .

* * *

وأحب — قبل أن أنتهى من الحديث فى مصادر ثقافة حافظ — أن أشير إلى مصدر آخر له أثره الكبير ، وهو تجاربه الواسعة التى اكتسبها بمخالطة الناس والاندماج فيهم . فقد أتاح له بؤسه أن يتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ، فعرف الكثير من ميولهم وأهوائهم ، وأدرك عن كثب ما كان يختلج فى نفوس الشعب من عوامل الحقد والموجدة على المستعمرين وعلى ذوى الثراء . وكان الناس يُقبلون عليه لظَرفه وأدبه ، وكان هو رجلا وفيًّا ، شديد الحفاظ على المودة والصداقة ، كثير التفقد لمجالس إخوانه ، ينتقل فيها بين جدّ القول وهزله فى خفة وظرف ، حتى ليخيل إلى جليسه أنه فى بستان قد تعطّفت جداوله وهتفت على أغصانه بلابله .

حقًّا إن حافظاً قد درس فى مدرسة الحياة واستقى كثيراً منها « فكان الناس مدرسته وكتابه ومعلمه » كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ[٢] .

---

(١) شاعر الشعب ٣٦ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٨ .